

## الفكر التاريخي عند الزركشي (ت بعد 894هـ/1489م)

أ . حامد عائشة

khamedaicha@gmail.com

جامعة عمار ثليجي بالاغواط

### الملخص

لعب الفكر التاريخي في العهد الحفصي دورا بارزا في إرساء معالم منهجية وفكرية جديدة، لما يوافق الإيدولوجية السياسية والمرحلة التاريخية التي تعرفها بلاد المغرب الاسلامي، بعد الانتكاسة الحضارية والفكرية التي اعقبت سقوط الموحدين، و تفكك الكيان الحضاري بالاندلس وترنخ معالمه التاريخية والجغرافية .

حاول الزركشي في خضم هذا الحطام بعث تاريخه، متتبعاً فيه آثار الحفصيين وسادتها مركزاً على حكم ابي فارس غزير والمستنصر، لما تاتي له من مادة خبرية وشواهد عينة، اقام عليها مصنفه بمنهجية حولية. كما إمتد خارج الاطر الحفصية عبر الزمان والمكان، ليللمم بتاريخه شدرات من تاريخ الشرق والغرب في أهم المفاضل التاريخية.

### الكلمات الدالة

الزركشي، الكتابة التاريخية، تاريخ الدولتين الحفصية والموحدية، الدولة الحفصية.

### Summary

The Historical thought ( intellect ) in the Hafsi era played a prominent role at setting up of a new methodological and intellectual foundations which suit the political ideology and the historical stage defined by The Islamic Maghreb ,after the cultural and intellectual setback that followed the fall of Almohads , and the disintegration of the civic identity in Andalus and the demarcation of its historical and geographical features. Zarkashi tried hard to create and refresh his history following the Hafsis and its masters traces, focusing on the rule of Abi Fares ghaziz and Al Mustansir because of the new material and the clear proofs which he complied with a systematic methodology.As he extended outside the The Hafsian phases throughout the

time and the place ,to gather , in the most important side and historical differences , the east and west history

شهدت الدولة الحفصية أواخر عهدها، تبلور فكر تاريخي يواكب الحراك السياسي للدولة، جمع فيه الزركشي تاريخ البلاد التونسية على مر السنين، أيام الموحدين والحفصيين، مسترسلا لآحوالها الحضارية ومجالاتها الفكرية، وتسليط الضوء على هذا المصنف الهام من شأنه ان يعطينا مقارنة تاريخية دقيقة للمستوي الحضاري الذي عرفته الدولة الحفصية في فترة الكاتب وما قبلها، وعن طبيعة الكتابة التاريخية التي بُعث بها هذا المصنف وقام عليها.

ترجمة بالكاتب

اولاً : المولد والنشأة

ولد أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن اللؤلؤ المعروف بالزركشي بالحاضرة الحفصية تونس سنة (820هـ/1417م)<sup>1</sup>، غير أن البعض يرى انه ولد في حدود (830هـ/1426م)<sup>2</sup>، بينما يذهب صاحب كتاب مصادر تاريخ المغرب والاندلس الى أن مولد كان بعد سنة (830هـ/1426م)<sup>3</sup>، ويرجح تاريخ وفاته بعد سنة (894هـ/1489م)<sup>4</sup>. ومنهم من يتعدى ذلك الى سنة (932هـ/1526م)<sup>5</sup>، وهو الرأي ذاته الذي أقره بن سوادة المري بعد مراجعته لنصوصه<sup>6</sup>.

غير أننا نرى أن هذا الطرح لا يستند إلى دليل تاريخي، خاصة وأن المادة الخبرية للزركشي لا تتعدى نهاية القرن التاسع الهجري، وعلى هذا الاساس وفي ظل غياب شاهدة تاريخية مؤكدة تحدد تاريخ وفاه بدقة، فإن ما توفر من نصوص أقر أن وفاته كانت بعد (894هـ/1489م) على اقل تقدير.

تلقب المؤرخ باللؤلؤى نسبة إلى جده؛ وهو مملوكي بتونس وسلك مسالك أهل البلد وأعرافها<sup>7</sup>، والزركشي ولد ونشأ في تونس الحفصية حراً، وكان الى حد ما مقرباً من

السلطة الحاكمة ودواليب القرار بها، مما أتاح له الفرصة بتولي عدة مهام رسمية ، منها كاتباً بديون الإنشاء<sup>8</sup>.

ثانياً : شيوخه

أخذ الزركشي العلم والادب عن نخب من علماء عصره ممن ذاع صيتهم في البلاد فجلس لفترة في مجالس العالم أحمد القلشاني، وحفيده محمد بن عمر القلشاني، أحمد القسنطيني، وأبو البركات محمد بن عصفور<sup>9</sup>.

أخذ عن أحمد القلشاني أخبار الرجال وصولاتهم وتواريخ الأمصار وتقلباتهم ، وإستفاد منه في التعريف لإخبار الدولة الحفصية وسادتها في أوائل العهد وما تعلق بها من مظاهر . واستعان بإن عمر، في شرح قصيدة الدمامينة وفهم معانيها، وعن ابن عصفور أخذ الفقه والحديث والزهد والورع<sup>10</sup>.

نستنتج من خلال نمطية كتاباته التي جاء بها تاريخ الزركشي وشروحه لقصيدة الدمامينة، ان دراسته عند هؤلاء العلماء الكبار، كانت لفترة محدودة، ومن دون ملازمة، مما قلل حجم معارفه التاريخية والفقهية واللغوية، وانعكس على انتاجه الفكري، في ظل الانحطاط الركود الحضاري والثقافي للدولة الحفصية.

ثالثاً : عصره

عاش الزركشي في القرن التاسع الهجري، على عهد السلطان ابو عمرو عثمان الحفصي، في فترة صعبة فقدت فيها الدولة تماسكها، وقامت بين أطرافها فتن واضطرابات نخرت عظمها<sup>11</sup>، واضمحل الإتصال بين دويلات المغرب والاندلس، وصار ملوكها بعضهم لبعض عدو، وزادت معها الاخطار الخارجية، أبانت عن مناخ جديد، عصف بالامة الاسلامية، وبإنتاجها الفكري وحراكها العلمي الذي أصابها بالهوان فتوقفت قرائح الكتاب والشعراء<sup>12</sup>.

عابن الزركشي عن كذب تدهور أحوال البلاد التونسية على وجه الخصوص في عهد السلطان ابي فارس عبد العزيز (796-837هـ/1394-1433م)؛ الذي عمل جاهدا على ضبط اركانها والقضاء على أعداء الداخل والخارج وردع الفتن وقلقل السياسة ما أمكنه<sup>13</sup>. والحال ينطبق على خلفه السلطان المستنصر (837-839هـ/1433-1435م)؛ والذي رغم مرضه حاول فرض الامن والاستقرار في ربوع البلاد، والقضاء على مؤامرات خصومه والحد من ثورات القبائل في طول البلاد وعرضها<sup>14</sup>.

غير أن الفترة التي عاينها الزركشي عن كذب، هي فترة حكم السلطان ابي عمرو عثمان، الذي حكم اكثر من خمسة عقود (839-893هـ/1436-1488م)، ومن الطبيعي ان تكون هذه المرحلة التاريخية حافلة بالأحداث التي ألهمت فيها بيدوا الزركشي لكتابه تاريخه، خاصة وأن الفترة تداخلت فيها الاحداث السياسية والحضارية، وشهدت الدولة مرحلة هامة من تاريخها، في ظل سعيها الحثيث لبسط نفوذها في المنطقة.

عمل السلطان عثمان جاهدا لراب الصدع وترسيخ الاستقرار، وتتبع العابثين بامن واستقرار البلاد، وكسر شوكتهم، كما كانت له اهتمامات ثقافية مختلفة، كبناء العديد من المساجد والزوايا، وخزائن الكتب<sup>15</sup>.

هذا الحراك السياسي الاجتماعي والثقافي، كانت له وقعه في نفوس الطبقة المثقفة، بما لها من توجهات مختلفة، وخاصة طبقة الشعراء، التي عابن منها الزركشي عدد كبير، وخصوصا شعراء البلاط، ممن مدحوا السلطان عثمان، نظير خدماته ومن هؤلاء: ابا علي عمر الغرناطي، و ابا الخير المالقي، و ابا منصور الجزيري الاندلسي، و احمد بن ابي العمر الفاسي، و ابا العباس بن الخلوف القسنطي<sup>16</sup>.

مما يستوجب الملاحظة غياب شعراء أهل البلد، من مادحي السلطان الحفصي، وهذا من دلائل تدني الإنتاج الثقافي، وهي ميزة الدولة الحفصية في اخر محطاتها، رغم جهود الحكام للنهوض بهذا الميدان، وقد يكون ذلك عاملا من العوامل التي قادت الزركشي للتأليف.

## رابعاً: نشاطه

إن الدراس لتاريخ الدولتين، يتأكد أن الكاتب كان على مقربة من البلاط الحفصي، والارجح انه كان كاتباً من كتاب للدولة ومقرباً في دوايب القرار فيها، ولو أنه لم يشر لذلك في تاريخه بصفة مباشرة، وحجتنا في ذلك حجم المعارف التاريخية، التي لا يمكن لوصول لها إلا بالتقرب من صناع القرار في الدولة، وهذا ما يضيف أهمية بالغة على تاريخه، رغم ما شابهه من نقائص وهفوات .

## خامساً: مؤلفات الزركشي

ترك الزركشي عدة تأليف تختلف من حيث أهميتها الفكرية ، وتعدد مواضيعها ومن بينها، بلوغ الاماني في شرح قصيدة الدمامينة.

أختلف حول هذا المصنف فمنهم من يرى انه شرح الدمامينية، ومنهم من يرى انه عبارة عن تراجم لشعراء عصره<sup>17</sup> ، والراجح أنه شرح الدمامينية؛ وهي قصيدة في مدح السلطان الحفصي ابي العباس احمد نظمها لاجله الشاعر بدر الدين محمد بن اي بكر الدمامي الاسكندري(763-828هـ/1361-1424م)<sup>18</sup> ، وكان ذلك سنة (793هـ/1391م)، وتضم القصيدة 99 بيتاً مطلعها

تجنى فاحفى الجسم والوجد يظهر      ولا ينكر الاخفاء فاللحظ يسخر  
ونعم متى الطرف نعمان خده      على انه للصب بالقتل منذر  
ويستمر الى

طوى نشره ذكر الغوالى كانه      روى عن ابي العباس ذكر يعطر  
وختامها

قدم كامل العليا فضلك طاهر      وعزمك منصور وانت مطفر<sup>19</sup>

والشرح الذي قدمه الزركشي، يمثل الى الاختصار في كثيرا من الأحيان، تطغى عليه المحسنات البديعية غير انه يحمل العديد، الفوائد التاريخية في أحوال البلاد والعباد<sup>20</sup> ، توجد من هذا الشرح نسخة بالمكتبة الوطنية التونسية، أصلها من المكتبة الاحمدية<sup>21</sup> .

اعتمد الزركشي في شرح القصيدة على أبيات شعرية تصل في بعض الحالات 88 بيتاً، جلها مقتبس من اشعار غيره على طريقة التشطير إذ ضمن ابياته في أبيات القصائد، محاولاً من خلالها تدعم حججه ودلائله بأسلوب يميل الى الاعتدال فقد شرح مشكلاتها، وتوضيح معضلاتها، شرحاً بناه على التوسط من التقليل والتكثير، ونقحه ولحقه من شرحه الكبير الوارد ضمن القصيدة الاصلية، ويتضح أن الشرح الكبير نتاج عمل ناسخ متاخر عن زمن الزركشي بدليل التاريخ المقيد على اخرها العائد الى أوائل شعبان 1239هـ.

## 02- التعريف بتاريخ الزركشي

### اولاً : تحقيقاته

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي، من الراجح انه اقتبس تسميه عن المؤرخ ابن نخيل (ت 616هـ/1222م) الذي له مؤلفاً يحمل نفس العنوان<sup>22</sup>، وبالتالي قد يكون عمدته في النقل لكثير من المحطات التاريخية، التي عرفتها بلاد المغرب الاسلامي زمن الموحيدين وخلفائهم في تونس الحفصية، وبهذا يعد تاريخ الزركشي، من اهم مصادر تلك الحقبة التاريخية المميزة.

اهتمت بطبعه هذا الصدر الهام المطبعة الرسمية التونسية سنة (1289هـ/1872م) في 155 صفحة، وترجمة الى الفرنسية فانيان (fagnan) ونشرة بقسنطينة سنة 1895<sup>23</sup>، تحت عنوان<sup>24</sup>:

Chronique des almohodes et des hafside , constantine

1895

غير ان جرجي زيدان يذهب الى أن ترجمة فانيان، طبعت بالاستانة سنة 1895م<sup>25</sup>، وربما يعود ذلك لاعتقاده بان القسنطينية حاضرة العثمانيين، هي نفسها قسنطينة الجزائر، ومن هذه الأصل قام محمد ماضور بتحقيقه، ووضع مقدمة وترجمة لصاحبه كما طعمه بفهارس وتعليقات زادت من اهميته العلمية التاريخية .

ثانياً : مضمون الكتاب

تاريخ الزركشي هو تاريخ موجز لبلاد المغرب الاسلامي على عهد الموحدين، وخلفائهم على تونس واحوازها أيام الحفصيين، عرج فيه صاحبه على الدولة الموحدية ومرجعيتها الفكرية والروحية، التي وضع أركانها الامام المهدي ابن تومرت صاحب الصولات والحوالات بالإمصار، بعد أن تشبع من علوم الظاهر والباطن في المشرق على يد فطاحلة من العلماء وفحول الفقهاء، الى إن نجح معتنق فكرته عبد المؤمن بن علي من التأسيس لصرح الموحدين ببلاد المغرب، وبلورة فكرته الى حقيقة تاريخية، من دعوة الى دولة بلورتها حقيقة تاريخية منذ سنة (534هـ/1140م)<sup>26</sup> وتصنع من جغرافية بلاد المغرب صرحاً تاريخياً يمهّد لكيانها ويؤسس لإفاتها، ليعرج بعد ذلك الى نجاحاتها السياسية والعسكرية، وتحرير سواحلها وتمكنها في طرد النورمان وتحرير المهديّة سنة(555هـ/1160م)<sup>27</sup>.

كما أورد محطات تاريخية للموحدين على عهد يوسف بن عبد المؤمن (558-580هـ/1163-1184م) ثم ابنه يعقوب (580-595هـ/1184-1199م) فمحمد الناصر ابن المنصور(595-610هـ/1190-1214م) واخبارا من حكم يوسف ابن الناصر (610-620هـ/1214-1223)ومن خلف ملكة، مستعرضا سيرهم واخبارا من ايامهم، وانجزاتهم في التمكين لدولة الموحدين بالمغرب الاسلامي<sup>28</sup>. ثم عرج لمرحل الترنخ والانقيار الذي عصف بالموحدين، جراء الضعف الذي أصابهم.

ساهم الزركشي في أفراد نصوص متأخرة لفترة حرجة من ايام الموحدين كان ميزتها الضعف والاضطرابات والتهايوي السياسي والروحي والفكري، الذي نخر عظم البيت الموحي وانتهى ذلك لزوالها من مسرح التاريخ<sup>29</sup>

هذا وعرج الزركشي الى اخبار الدولة الحفصية، وغطي جانبا كبير من تاريخها، وصولا إلى عهد ابي زكريا(627-647هـ/1230-1271م)، مؤسس الدولة الذي اظهر براعة ومقدرة ونضج سياسي ومهارة ادارية في بسط سلطانه بالديار التونسية، وما

تبع ذلك من قفزة حضارة شملت كل الميادين، وتتبع حراك الحفصيين بعد ذلك مع خلفاء ابي زكريا أمثال المستنصر ابن ابي زكريا (647-675هـ/1271-1249م) والواثق ابن المستنصر (675-678هـ/1249-1217م).

وهو على هذا الحال يعدد شيم الحكام الحفصيين ويتبع أخبار دولتهم والصراعات الداخلية والخارجية التي عرفتها<sup>30</sup>، ليتوقف مطولا عند ابي فارس عبد العزيز (796-837هـ/1394-1433م)، كونه من المع حكام بني حفص<sup>31</sup>، فقد «...رتب الاحوال ، واعطي الاموال ، واخذ بالحزم في امارته... وحعل في كل خطة من يصلح لها»<sup>32</sup>. استطاع عبد العزيز توطيد اركان الدولة والتمكين لها ودخر اعداءه في الداخل والخارج، وقرب اليه العلماء والحكماء واهل الفصل وحسن التسيير وسادة المجتمع وصفوهم<sup>33</sup>.

ليحط الرحال بنصوه التاريخية عند ابو عبد الله محمد المنتصر الحفصي (837-839هـ/1433-1435م) الذي ورغم حداثة عهده بالسياسة الا انه استطاع التربع على عرش تونس وازاحة متاوثيه غير ان القلاقل وفتن السياسية إشتدت عليه في ظل تدهور حالته الصحية ودخول الدولة في منعرج خطير من تاريخها<sup>34</sup>.

إلى جانب أخبار والسياسة وقلاقلها حمل الزركشي كتابه بمعارف عمرانية واجتماعية واقتصادية واخبار جغرافية كحديث عن سك النقود النحاسية بتونس لتكون في متصرف اهلها<sup>35</sup> وارتفاع اسعار المواد الغذائية وندرتها في الاسواق سنة (755هـ/1354م)<sup>36</sup> مما ينم على أن الدولة تشهد وضعية اقتصادية حرجة، وساهم الزركشي في منح المهتمين بتاريخ البلاد التونسية على عهد الحفصيين نصوصا وشواهد إقتصادية واجتماعية تساهم في إمطة اللثام عن مظاهر هامة من تاريخ تونس.

قدم الزركشي جوانب عمرانية وثقافية، توصح اهتمام الحكام بني حفص بها على درجات متفاوتة، ومن امثال ذلكأبي فارس عزيز الذي نسب له العديد من المنجزات

كبناء الزوايا، والمدارس لطلبة العلم، وحبس الاوقاف لها، وإهتم بالعلم والعلماء وقرهم بمجالسه<sup>37</sup>.

ولم يهمل الزركشي الكوارث الطبيعية التي حدثت في العهد الحفصي ومن ذلك قوله «...وفي يوم الخميس الثاني عشر صفر واحد وخمسون وثمانئة وقعت الزلزلة بتونس قرب الزوال»<sup>38</sup>.

كما حمل الكتاب في طياته أخبار وفيات العلماء، والفقهاء والخطباء، وأهل الفضل والحكمة من رجال الموحدين وخلافاتهم، وكذا العلاقات القائمة بين الطرفين من جهة، ومن جهة أخرى علاقتهما بأوروبا المسيحية في فترات مختلفة في إطار الصراع بين الشرق والغرب وتدعياته على الجانبين، وهو على هذا الحال حتى يتوقف الزركشي بكتابه بشكل مفاجئ عند سنة (882هـ/1477م)<sup>39</sup>.

وحمل الكتاب ملحق به تقايد حول بعض الحكام من الدولتين، وبرز الأحداث التي عرفها حكمهم حتى سنة (932هـ/1526م) على سبيل الإيجاز، إلا أن هذا الملحق قد يكون من وضع من طرف نساخ متأخر عنه.

غير أن البعض يؤكد أن الملحق من نتاج الزركشي وصناعته<sup>40</sup>، ويستدل بكلام ابن أبي دينار في مؤنسه، ناقلا عن الزركشي في كلامه، بخصوص فترة حكم محمد بن الحسن ابن المسعود، الذي بويغ في الخامس والعشرون من ربيع الثاني سنة (932هـ/1526م)<sup>41</sup>، وأمام هذه الآراء المتضاربة حول هذا الملحق ونسبه، لا يمكن الميل لطرف دون الآخر، في ظل غياب وثائق تؤكده أو تدحض صحته.

### ثالثاً: الأهمية التاريخية لتاريخ الزركشي

إن الدراسات لتاريخ الزركشي يدرك انه مفخرة من مفاخر التحوم التونسية وأيقونة حفصية جمع فيها اصناف من الاخبار السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية، والدينية، كما حمل من أخبار العلماء، والفضلاء وأهل الفقه، والجاه والورع والتقوى،

اسفارهم وسير من حياتهم، وتواريخ وفاتهم: مثال: ابي البركات ابن عصفور، وقاضي الجماعة عمر القلجاني، وابو عبد الله محمد ابن ابي بكر الونشريسي<sup>42</sup>.

يعتبر كتاب الزركشي من الكتابات المختصة التي تطرق موضوعا واحدا، تمثل في اخبار الموحدين، وخلفائهم بني حفص لفترة اربعة قرون ونيف من الزمن، من مطلع القرن السادس الى أواخر التاسع الهجري<sup>43</sup>.

فهو بذلك مصدر اصيل وعمدة لمن جاء بعده لمؤرخي تاريخ الموحدين والحفصيين، على غرار صاحب المؤنس ابن دينار؛ الذي استشهد به كثيراً في عدة مواضع خاصة في أخبار عبد العزيز ودولته، وأثني ابن دينار على الزركسي وما قدمه من ظواهر مختلفة عرفت بها البلاد من ايام بني حفص بالخصوص الى زمن الكاتب، غير ان الظاهر أن هذه النصوص والمقاربات التاريخية تحمل في طياتها ايدولوجية حفصية تخدم النظرة السياسية لحكامها.

ومهما يكن من امر فقد حاول الزركشي عبر تاريخه ملممة اخبار الموحدين والحفصيين السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، لفترة هامة من فترات بلاد المغرب الاسلامي.

كما أبان عن توجه من توجهات الفكر والمنهج للمدرسة الحولية التي باتت معالمها ترسم بشكل واضح، مستفيدة من التراث التاريخي في المشرق والمغرب، وهي ميزة تشاركية وحلقة من حلقات الترابط التي ميزت الكتابة التاريخية.

غير أن تاريخ الزركشي جاء ليعزز المكانة الروحية للحفصيين، شأنه شأن الكثير من التوجهات الفكرية التي عرفت بها الكتابة التاريخية ببلاد المغرب الاسلامي في مختلف محطاتها، وخاصة وخصوصية المرحلة التاريخية التي اعقبت الصراع التاريخي بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي في سياق الحروب الصليبية وما نتج عنها من متغيرات في الخريطة السياسية والنظم الفكرية.

رابعاً: مصادر الزركشي

يعتبر الزركشي آخر مؤرخي الدولة الحفصية، اعتمد في كتابة تاريخهفى الفترة الاولى على الكثير من المصادر البارزة في مقدمتها: تاريخ ابن خلدون الموسومبالعبر وديوان المبتدأ والعبر في أيام العرب والعجم البربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر لي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون(732-808هـ/1332-1406م) من مواليد تونس، و بها درس، اشتغل في خدمة الدولة، وارتحل مسافرا آسيا وإفريقيا، وبلاد الأندلس، اشتهر بكتابة المقدمة، وهو من رواد فلسفة التاريخ، وعلم من أعلامها، يجعل التجربة أساس العلم، وصال وجمال في مصنفه من محطات التاريخ وصناعه، ويذكر ما يتعرض له المؤرخ من المغالط والأوهام، ويدعوا إلى دراسة التاريخ على أساس ربط العلة بالمعلول، وموضوع التاريخ عنده هو الحياة الاجتماعية بكل مظاهرها من أفعال ومنازعات، وحكومات، وعلوم وصناعات، ويتكلم عن انبعاث الحضارة وازدهارها، وتدهور الأمم، وزوالها، وتجمعت في شخصية ابن خلدون العناصر الأساسية النظرية والعملية؛ التي تجعل منه مؤرخاً حقيقياً.

كما إستعان الزركشي في بناء صرحه على ابو عبد الله محمد ابن النخيل كاتب اللواء الحفصي من قبل الناصر الموحي ابا محمد عبد الواحد بن ابي حفص وكان مصدرا هاما، اذا اعتمده ابن خلدون في كتابة تاريخه لكنه مفقود<sup>44</sup>.

واعتمد الزركشي على الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، لابن قنفذ القسنطيني، وأحمد بن محمد الغرناطي<sup>45</sup>، كما كان اعتماده واضحا على أبوزيد عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله الأنصار بالأسدي، المشهورب الدباغ(605-696هـ/1208-1297م) في « معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان »<sup>46</sup>، ويعتبر كتاب "معالم الإيمان" مصدراً أصيلاً في نقول الزركشي<sup>47</sup>، بما فيه من مادة دسمة عن تراجم الرجال، والحياة الثقافية العامة بالقيروان، وكثيرا ماكان يذكر المعارف التاريخية عن تخطيطها ومعالمها وعادات أهلها، وحرارتها وأسواقها، في معرض أحاديثه عن المترجم لهم. وقد عُرف "الدباغ" بالأمانة والثقة فيما ينقله.

وأخذ عن العبريني(644-704هـ/1246-1304م) في كتابها الموسوم بعنوان «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية»<sup>48</sup>، فهو من أهم المصادر التاريخية لبلاد المغرب، عن الحياة العلمية في القرن السابع الهجري في بجاية، وسجل حافل بتراجم عشرات العلماء والمؤرخين والأدباء والشعراء وغيرهم ممن عرفتهم المدينة من مشاهير أعلام الجزائر وتونس والمغرب والأندلس .

وأخذ عن ابن الخطيب الأندلسي العالم بالتاريخ والفلسفة والرياضيات في «أعمال الأعلام»<sup>49</sup>؛ وهو من المؤلفات التاريخية الهامة، وقد شمل على ثلاثة أقسام: تتناول تاريخ المشرق الإسلامي: من السيرة النبوية، والخلفاء الراشدين، وتاريخ الدول بعد ذلك، فتاريخ عام للأندلس من الفتح العربي الإسلامي حتى عصر المؤلف<sup>50</sup>، ليعرج على تاريخ أفريقية، ويشمل: تاريخ الدول والامارات المتعاقبة وصولاً لدولة المرابطين، وبداية دولة الموحدون حتى عبد المؤمن بن علي.

أما بالنسبة للفترة المتأخرة للدولة الحفصية التي عاش في كنفها وعاینها عن كيث وعد شاهد عيان عنها، فقد استند فيها الى روايات معاصريه أمثال شيخه أحمد والقشاني، ثم الى الوثائق والنصوص التي توفرت له من دفاتر ودواوين الدولة وأخبار بلاطها، ومراسلات السلطان وتقاييده، ما يجعله المصدر الاساسي في نظرنا الذي اتم تاريخ الدولة الحفصية، وربط حلقاتها، ومختلف ظواهرها الحضارية حتى عهد السلطان عثمان الحفصي حتى سنة(887هـ/1482م) .

#### خامساً- المنهج التاريخي للزركشي في الكتابة التاريخية

سلك الزركشي في كتابة تاريخه منهاجاً حولياً، عالج فيه تاريخ الموحدون وخلفائهم الحفصيين، غير ان الدراسات لهذا المصنف يشد إنتباهه التقسيم الضمني الذي اعتمده. حيث ضمن مصنفه عناوين بارزة تختص بكل حاكم من حكام الموحدون ومن ورثهم على الديار التونسية، متصفحاً تاريخهم بحسب السنين، من حاكماً لآخر ومعرجاً لابرز

الإحداث التي عرفهما حكمهم ،فاجتمعت للزركشي مادة علمية خيرية اختلفت في غزارتها من حاكم لآخر .

الى جانب ذلك إنتهج الزركشي تقسيماً منهجياً خاصاً اعتمد فيه على التسلسل التاريخي بان جعل له عناوين باسم حكام الدولة الموحدية ثم الحفصية، كما عنون لأهم الأحداث التاريخية التي ميزت فترات حكمهم ومثال ذلك "مبدأ دولة أبي زكريا يحي بن عبد الواحد"<sup>51</sup>، "دولة عمر ابن زكريا"<sup>52</sup> .

اعطي الكاتب أهمية بالغة لبعض المحطات التاريخية، كونها تشكل نقطة مفصلية فارقة في تاريخ الدولة الحفصية بحسب ما يراه الزركشي، وقدمها بعناوين أساسية على غرار " فتح المهديّة من يد النورمان"<sup>53</sup>، على عهد عبد المؤمن بن علي ،و"بيعه أهل الأندلس"<sup>54</sup>، للسلطان الحفصي أبي زكريا يحي بن عبد الواحد .

الى جانب ذلك يظهر أن الكاتب كان يحاول الإلمام بتاريخ الشرق والغرب في بعض المحطات الحاسمة، مما يدل على اطلاعه بها، غير أن طبيعة المادة الخيرية تدل على أن الزركشي كان محدود المعارف بها ،نتيجة ارتباط الأحداث التاريخية تأثيراً وتأثراً، فنجده يتكلم بداية اضطراب ملك الموحدين بالمغرب الأقصى، واضمحلال نفوذهم، في ظل الصراعات والفتن السياسية القائمة<sup>55</sup>، لينتقل الى بلاد المشرق ، ويتناول تناولاً يميل إلى الإختصار، وخاصة في اخباره عن أهم القضايا التاريخية التي عرفتها كالهزيمة التي تعرض لها ملك العباسيين، وسقوط الحاضرة بغداد، مما ادي بزوال ملكهم على يد التتار<sup>56</sup>، كما أنه حاول طرق العلاقات القائمة أيام السلم والحرب بين المغرب وتونس في فترات مختلفة<sup>57</sup> .

هذه المادة الخيرية التي إجتعت للمؤرخ اختلفت في غزارتها من حاكم لآخر فقد اطنب الكلام عن البعض أمثال: ابي فارس غزير<sup>58</sup>، والمستنصر الحفصي<sup>59</sup>، وهذا بحكم قرب المؤرخ من الحادثة التاريخية وما اجتمع له من النصوص التاريخية التي أرخت لها، وفي المقابل شحت إخباره عن بعض الحكام أمثال الواثق ابن المستنصر<sup>60</sup>، ابي بكر يحي

بن ابراهيم، ومن جهه اخرى فقد أهمل إخبار بعض الحكام إهمال تام ولم يتطرق الى اخبارهم مثل اخبار الحاكم.....

ونرجح أسباب ذلك لغياب المادة العلمية التاريخية عن فترات حكمهم، خاصة فيما تعلق بحكام الدولة الحفصية، فيكون بذلك قد ضيع علينا حلقات هامة من تاريخ بلاد المغرب الإسلامي في زمن الموحدين والحفصيين بعدهم.

كل ذلك بأسلوب روائي شيق يميل الى الاضطراب في بعض الاحيان، مع نزوعه الى الاختصار في سرد الاحداث دون التعليق عليها، وهي ميزة من مميزات المنهج الحولى. رغم ما يؤخذ عليها في تغييب الحوادث التاريخية، ولربما قد جنح المؤرخ واهتم بأهم الأخبار على حساب غيرها، مستعملا العديد من العبارات التي تخدم المنهج المعتمد ومنها: «وفي سنة»<sup>61</sup>، «وفي عام»<sup>62</sup>، «وفي آخر السنة»<sup>63</sup>، «في السنة المذكورة»<sup>64</sup>، «وفي أوائل عام»<sup>65</sup>، «وفي أواسط عام»<sup>66</sup>، «وفي شهر»<sup>67</sup>، وهي عبارات درج عليها اصحاب المنهج الحولى منذ اصوله أولى، فحاول الزركشي الأمام قدر الامكان بأهم الحوادث التاريخية في سنة دون ان يكون للكاتب موقف أو تعقيب عن الاجداث التي أوردها، الا ذكر عبارة الله اعلم، اذا ورد في الحادثة عدة روايات.

كما ان الكاتب لم يكن ميالا لسرد الكرامات والقصص الخرافية، والاطناب في مدح الحكام والتزلف لهم، والتعصب الفارغ لتيار دون الاخر، ولهذا غابت عن الكتاب عبارات التجريح والظعن في شرعية الحكام، خاصة ما تعلق بالموحدين وحكام المغرب الاقصى .

ان الدارس لتاريخ لدولتين الوحيدة والحفصية، يلاحظ عنه محاولة المؤلف في التدقيق وضبط بعض الاحداث، وفق اجزاء اليوم، ولذلك نجده يستخدم العديد من العبارة المختلفة منها: «في صبيحة»<sup>68</sup>، «وفي ليلة»<sup>69</sup>، «عصر يوم»<sup>70</sup>، «وفي عشية»<sup>71</sup>، «عند غروب شمس يوم»<sup>72</sup>.

هذا التدقيق في وصف الاحداث التاريخية القريبة والبعيدة عن زمن الكاتب، ينم عن الاهتمام البالغ للزركشي بها، ومرد ذلك لارتباطها الوثيق بوفيات كبار حكام الدولة،

الموحدية والحفصية وهى تواريخ معلمية للعامّة والحاصّة، الى جانب وفيات كبار مشائخ الفقه والخطبة المقربين من السلطنة أمثال: ابو عبد الله محمد ابن ابى بكر الونشريسي إمام جامع الزيتونة وخطيبها، والفقيه القاضي ابو محمد عبد الله البحتري، كما دقق في وفيات اساتذته على غرار الفقيه المفتى ابو العباس أحمد القلجاني.

هذا وقد لوحظ عن الزركشي الاضطراب، وعدم الدقة من اخباره، وارتبائه في بعض الحالات، واعتماده على المقاربة فقط، خاصه عند كلامه عن ميلاد ابى فارس عبد العزيز<sup>73</sup>، ومرد ذلك فيما يبدوا لميلاد السلطان فارس بقسنطينة بعيدا عن حاضرة الحفصيين بتونس، مما أربك ممن يهتم بتاريخه في ظل البعد الجغرافي، وتهاوي حركة التدوين والترجمة التي عرفها الحفصيون في نهاية عهدهم .

والى جانب نصوص التاريخ اعتمد الزركشي على ابيات الشعر في تدعيم أخباره في مواطن عديد، سواء في المدح ملوك الدولة، أو في الأحداث وصف مختلف الظواهر التاريخية، وهو أمر طبيعي في ظل الصراع المذهبي والسياسي، الذي غذته العصبية القبلية ببلاد المغرب والدويلات المتعاقبة عليه، كما كان سمة من سمات الشعراء في تخليد الاحداث خاصة احداث الحروب، أو سنين القحط والجفاف .

#### الخاتمة

إن تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي، يعد بحق مفخرة من مفاخر التخوم التونسية، جمع فيها اصناف من الاخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، فهو بذلك من اهم المصادر التاريخية، التي تورخ لبلاد المغرب الاسلامي في فترة حرجة من تاريخه، بمنهج حولى، لفترة ناهزت الاربعة قرون ونيف من الزمن. سار فيه صاحبه على سرد الاخبار دون تنقيحها، ولا تحليل الاخبار وتفسيرها، وكانه في ذلك لم يستسغى فكر ابن خلدون، القائم على التحليل والتفسير للظواهر التاريخية، رغم اعتماده عليه وقربه منه .

يعتبر الزركشي عالماً بارزاً، وطوداً شامخاً لاسهامه الحضاري في بلاد المغرب الاسلامي بالخصوص، حيث عدت نصوصه من بين اهم المراجعيات التي وجب الرجوع لها قصد التأسيس لتاريخ مؤسس في الفترة الوسيطه.  
قائمة البيبلوغرافيا

<sup>1</sup> ابو عبد الله محمد ابراهيم المعروف بالزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس ، 1966، ص ج من مقدمة المحقق .

<sup>2</sup> سعيدوني ناصر الدين :من التراث التاريخي و الجغرافي للمغرب الإسلامي، دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، 1999، ص 249.

<sup>3</sup> أنور محمود زناتي: مصادر تاريخ المغرب و الأندلس ، دار سحر للنشر، د.ب.ن، 2008. ، ص 58.

<sup>4</sup> علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والمغرب الاسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008 ، ص 170.

<sup>5</sup> أنور محمود زناتي:المرجع السابق، ص 58.

<sup>6</sup> عبد السلام بن بن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، مكتب البحوث و الدراسات ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، 1997، ص 91 .

<sup>7</sup> محمد محفوظ: ترجم المؤلفين التونسيين، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ج 2، ص 413.

<sup>8</sup> محمد محفوظ: المرجع السابق، ص 413.

<sup>9</sup> سعيدوني ، المرجع السابق ،ص 249.

<sup>10</sup> محمد محفوظ، المرجع السابق ، ص 413.

<sup>11</sup> محمد العروس المطوي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الاسلامي، دار العرب الاسلامي، بيروت 1986، ص 612 وما بعدها .

<sup>12</sup> أبو القاسم سعد الله: بحوث في التاريخ الاسلامي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2003، ص ص 101-102 .

<sup>13</sup> أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الشماخ: الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، ب ب ن، 1984، ص ص 100-119.

<sup>14</sup> محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار العرب الاسلامي، بيروت 1986، ص 601.

<sup>15</sup> الشماخ: الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح وتق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، ب ب ن، 1984، ص ص 122-124

- <sup>16</sup> الزركشي: المصدر السابق، مقدمة المحقق ص 5.
- <sup>17</sup> محمد محفوظ: المرجع السابق، ص 414.
- <sup>18</sup> احمد بابا التنيكتي، المصدر السابق، ص ص 488-489. وينظر ايضا:علي بن سلطان الحكمي:تعقبات العلامة بدر الدين الدماميني في كتابه مصابيح الجامع الصحيح،دار البخاري للنشر، المدينة المنورة ، 1995،ص ص 20-31.
- <sup>19</sup> الزركشي، المصدر السابق ، ص ه .
- <sup>20</sup> الزركشي، المصدر السابق ، ص ه .
- <sup>21</sup> محمد محفوظ: المرجع السابق. ص 415.
- <sup>22</sup> نفسه، ص 414.
- <sup>23</sup> محمد محفوظ:المرجع السابق، ص 415.
- <sup>24</sup> جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي، 3ج، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د تا، ط، ج3، ج3، ص342.
- <sup>25</sup> جرجي زيدان (تاريخ الادب)، ج3، ص 342.
- <sup>26</sup> الزركشي: المصدر السابق، ص 11
- <sup>27</sup> نفسه: ص ص 3-7.
- <sup>28</sup> نفسه:ص 13 وما بعدها.
- <sup>29</sup> الزركشي: المصدر السابق ، ص 20 وما بعدها .
- <sup>30</sup> نفسه، ص 23 وما بعدها.
- <sup>31</sup> محمد العروسي المطوي: المرجع السابق ، ص 551.
- <sup>32</sup> ابن القنفذ ابن قنفذالقسطنطيني أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب:الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تق و تح، محمد الشاذليينفر، وعبد المجيد التركي،الدار التونسية للنشر،تونس، 1968، ص 189-190.
- <sup>33</sup> الزركشي، ص ص 114-131.وينظر ايضا عفاف عبد الجبار عبد الحميد: الحياة السياسية والحضارية للدولة الحفصية في عهد السلطان ابو فارس عبد العزيز ( 796-837 هـ / 1393-1433م)، مجلة كلية الآداب، العدد 95، الجامعة المستنصرية، ب ب ن ، ب تا، ص 98-144
- <sup>34</sup> نفسه، ص ص 131-159.
- <sup>35</sup> نفسه، ص 38.
- <sup>36</sup> نفسه، ص 95.
- <sup>37</sup> نفسه، ص 120 .
- <sup>38</sup> نفسه، ص 142.
- <sup>39</sup> الشماع، المصدر السابق ، 10.ابن ابي دينار: المصدر السابق ، ص 183.محمد محفوظ: المرجع السابق، ص414. وينظر ايضا: أنور محمود الزناتى: المرجع السابق، ص 58.

- 40 محمد محفوظ: المرجع السابق، ص 414. وينظر أيضا: أنور محمود الزيناتي: المرجع السابق، ص 58.
- 41 ابن ابي دينار: المصدر السابق ، ص 183.
- 42 الزركشي: المصدر السابق، ص 13 وما بعدها .
- 43 سعيدوني: ( من التراث) ، ص 252.
- 44 الشماع، المصدر السابق ، 10.
- 45 سعيدوني:( من التراث) ، ص 252.
- 46 أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري الأسدي، المشهور بالدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، اكمله وعلق عليه أبو الفضل قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني (ت 839هـ)، ج4، تصحيح، وتعليق ابراهيم شتوح ، مكتبة الخانجي، مصر، 1968، ص 215.
- 47 الزركشي ، المصدر السابق، ص 4 وما بعدها.
- 48 أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني الجزائري: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تح وتعد عادل نويهض، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979.
- 49 أعمال الأعلام فيمن ببيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشر تحت عنوان ، تاريخ إسبانيا الإسلامية ، تح ، إ . ليفي بروفنسال ، مكتبة الثقافة الدينية ( القاهرة ، 2004 م ) ، ص 47.
- 50 ساجد مخلف حسن حبيب: لسان الدين بن الخطيب وجهوده التاريخية في كتابه أعمال الأعلام، أطروحة دكتوراه فلسفة في التاريخ الإسلامي، بإشراف ر خالد محمود عبد الله، كلية التربية في جامعة تكريت، العراق ، (1427 هـ/2006م)، ص 174.
- 51 الزركشي : المصدر السابق ، ص 23
- 52 نفسه، ص 50.
- 53 نفسه، ص 11.
- 54 نفسه، ص 27.
- 55 نفسه، ص 20.
- 56 نفسه، ص 34.
- 57 نفسه، ص ص 67 وما بعدها .
- 58 نفسه، ص ص 114-131.
- 59 نفسه، ص ص 131-159.
- 60 نفسه، ص ص 40-43.
- 61 نفسه، ص ص 30 ، 93 ، 95.
- 62 نفسه، ص ص 77 ، 143 ، 151.
- 63 نفسه، ص ص 99 ، 139.
- 64 نفسه، ص ص 87 ، 88 ، 99.
- 65 نفسه، ص ص 139 ، 141 ، 144.

<sup>66</sup> نفسه، ص ص 139، 155، 157.

<sup>67</sup> نفسه، ص ص 120، 152، 159.

<sup>68</sup> نفسه ، ص 130.

<sup>69</sup> نفسه، 32، 79، 101.

<sup>70</sup> نفسه، ص 143.

<sup>71</sup> نفسه، ص 148.

<sup>72</sup> نفسه، ص 151.

<sup>73</sup> نفسه، ص 114.